على شفير النشيج

قصص

دار الوطن
للصحافة والطباعة والنشر

هشام بن الشاوي

على شفير النشيج

قصص

دار الوطن
للصحافة والطباعة والنشر

الكتاب : على شفير النشيج
الكاتب : هشام بن الشاوي
الصنف : قصص
الإيداع القانوني: 2016MO0991
الترقيم الدولي : ISBN : 978-9954-1-0990-8
الطبعة الأولى : مارس 2016
الناشـــر :
دار الوطن للطباعة والنشر
عمارة 7 زنقة الكوفة رقم 1 شارع مولاي يوسف الرباط المغرب
أرقام الهاتف:
مكتب: 212537703936+
جوال: 212673420256+
بريد إلكتروني: daralwatan2018@gmail.com
daralwatan2012@gmail.com
موقع إلكتروني: www.daralwatan.com
التصميم الداخلي والغلاف : هـنـد الـسـاعـدي
السحب :
L'IMPRIMEUR s.a.r.l
الهاتف : 30 30 83 37 05

فـــهـــرس

مثل ربيع لن يتكرر 7
تـواطـؤ 11
حــنيــن 15
نعش طائر 21
كرسي متحرك 27
جيـــران 33
قصة حب فيسبوكية 43
المنحة 61
أيام من سراب 71

مثل ربيع لن يتكرر

كالعادة، تطول مدة تبضعي، حين أختار دكان ذلك البقال العربي، الذي يتقمص دور الفقيه أحيانا، ودائما أجده يقص نبات "الكيف" المجفف بسكين خلسة تحت المنضدة، وسبق أن تباهى بماضيه في الصعلكة إبان وجوده بفرنسا.. بينما أحرص على أن يكون تعاملي مع البقال الأمازيغي عاديّا جدا، بسبب مزاحه البذيء مع بعض زبائنه، فإن تزامن حضوري مع وجود معاونه "ع"، لا أفوت الفرصة للمزاح معه، وهو يوزع ابتساماته هنا وهناك، في حضور الفتيات والخادمات، وأسأله في خبث : لم لا تبتسم في وجهي؟، تتسع ابتسامته، يغرق في ارتباكه، ولا ينبس بكلمة..

لامني البقال الفقيه لأنني تجاهلته عند مروري من أمام دكانه بالأمس، إذ لم أرغب أن يكون هناك أي جسر تواصل بيني وبين أحدهم.. فعاتبني : "السلام لله"، وشرع يحدثني عن معنى السلام عليكم، وعدد الحسنات وأجر من يرد تحية الإسلام كاملة، وهو يقص "الكيف"، وفطنت إلى سرّ إصرار بعض جيراننا على إلقاء التحية عليّ، حتى لو لم أكن أرد عليهم، ولا ألتفت إليهم.. فكرت في عدد الحسنات، التي سأحصدها، وأنا في طريقي.. لا سيما إن قمت بإلقاء التحية على إحدى جاراتنا، واعترض سبيلي زوجها أو أخوها أو ابنها!! ..

لم أجادله؛ فألم ضرسي كان يعصر كل قطرة دم في عروقي. هذا الألم جعل توازن كل شيء يختل، ونومي صار متقطعا، ولم أعد أحتمل أي ضجيج، وسكان البيت المجاور المؤقتين يعتبرون الصخب وسيلة للتعبير عن فرحهم بالحياة.. وبالصيف. كيف أحس بهذا الصيف وأنا أمقته؟...

لأول مرة، لم أنتبه لفصل الربيع. لم أتنزه يوما واحدا، بل - منذ سنوات-

لا أتذكر أنني رأيت فراشة أو أزهارا برية. هذه السنة، وعلى الرغم من عدم اهتمامي بالسياسة، فاندلاع الثورات قلب كل الموازين.. إنه عام الإحباط والكآبة بامتياز!

هكذا، وجدتني أفكر في هذه الحياة وجدواها، وأحس بالألم حين أرى كل هذه المباهج المسفوحة...

كنت أعرف أن مدة تبضعي ستطول.. اختلست نظرة إلى الشاشة الصغيرة، وحدثني عن ذلك الرئيس، الذي شاء الله تعالى أن يعذبه في الدنيا قبل الآخرة، إذ لم يمنحه شرف الشهيد، المقتول غدرا.. رفعت عينيّ إلى شاشة التلفزيون، حيث لا أشاهد قناة الجزيرة إلا حين أقصد دكانه، لأنني لم أعد أتحمل متابعة تلك الفظاعات، وكانت القناة تعرض مشاهد تفضح جرائم زبانية دكتاتور عربي...

وقف إلى جانبي شاب مراهق، اعتدت رؤيته مرابطا أمام شباك جارتنا المهجرية مع صديقه.. ليلا. رمقته بازدراء فصيح، حدقت في لحيته الدقيقة، والتي تسمى بـ "خط النمل"، حيث يشكل الزغب ما يشبه صف نمل فوق خديه وذقنه، تذكرت حين غادرت البيت، في اتجاه محطة القطار، فرأيته وصديقه ما زالا متشبثين ببركة الشباك المقدس، والشمس تدغدغ سكون الصباح الصيفي. وعقدت الدهشة لسان البقال حين سأله الدون جوان، وهو يرفع بصره إلى الشاشة، كمن يرى تلك المناظر لأول مرة : "أين يحدث هذا ؟".

تـواطــؤ

يرعبني وفاء هذا الحزن القاتل لقلبي، الطاعن في شيخوخته.لعلها بدايات فصل الخريف، تجعلني كئيبًا بشكل لا يطاق. حين كنت طفلا، تمنيت أن أكبر بسرعة، وأصير رجلا... قويا، وهاهي ملامحي المتجهمة الشاحبة، تشي بحقدي على هذا العالم الكريه، دون أن تتحقق أمنيتي المستحيلة باستعادة زمن البراءة...

كشبح، أمضي بين الأحياء الأموات. أصطدم بابتسامة عجوز يومئ بتحية، وهو يقترب مني، دون سابق معرفة بيننا. ابتسامته ودودة، لكنها تبدو لي مقززة. لم أبادله التحية، بل وجدتني ألعنه في سري، متسائلا : "لماذا يبتسم كمعتوه؟".

أتخيلني صرت عجوزًا مثله، وأغمغم: "سأتعذب أكثر إن عشت حتى أرذل العمر.. لا. لا. ربما، يكون عمري قصيرًا. فمن دون شك، سيقتلني هذا الحزن". ووجدتني أتأمل جسدي، الذي أكره وهنه المزمن، برثاء فصيح.

رأفة بعطالتي، استجبت لأختي التي تصغرني بعامين، وفتحت حسابًا بنكيًا بأقرب مصرف، لاستقبال "صدقاتها" الشهرية لي ولأمي العليلة، بعد أن رفضتُ الهجرة.. لأن لا أحد سيشغل فتى أعرج؛ حتى لو كانت عاهتي مجرد عيب خلقي صغير بساقي اليسرى، يجعل نصفي الأيسر يتمايل مع كل خطوة، بيد أن هذه العاهة جعلتني أهجر فصول الدراسة بسبب سخرية التلاميذ.

أجر خطواتي المتثاقلة، شبه المترنحة، ألج البناية الفاخرة، غير عابئ بالحارس المرابط عند البوابة الرخامية، وهو يتسول بطريقة حضارية :

"عطينا باش نشربو شي قهيوة". (هذه "القهيوة" تصير ارتشاء صريحًا، حين يطلبها منك موظف بإحدى المؤسسات البيروقراطية). قاومت رغبتي في أن أصرخ في وجه تلك المتسولة، ذات الجلباب الرث، الجالسة بالقرب من البوابة، مخفية ملامحها خلف خرقة بالية: "أنا من يستحق الصدقة، بينما دخلك اليومي...".

تعذر سحب تلك الورقة المالية عبر الشباك الآلي. باءت كل محاولاتي بالفشل. في كل مرة، يُطلب مني تصحيح المبلغ، وهو أقل من المطلوب أتوماتيكيا، فولجت المصرف. وقفت قبالة الموظف البشوش، انتبهت إلى أن المرأة التي بجانبي جارتنا، رأيتها تخرج من حقيبتها اليدوية حزمة من الأوراق المالية، وهي تعلن بأنها ستدفعها في الحساب. لم يضايقني - وأنا المفلس- أن أرى كل هذا المبلغ في يد امرأة..

لم تعبأ المرأة التي سبقها أريج عطرها بالطابور، وهي تفتح حافظة نقودها في زهو أنثوي، كأنما تتباهى بعملتها الصعبة، وهي تضعها بيني وبين جارتنا. بصوت خفيض قلت للموظف : "أريد سحب (...)". لم أستطع نطق قيمة المبلغ، الذي لا يتجاوز ستة دولارات تقريبًا. اكتفيت بالقول : "إن البطاقة الالكترونية...."، وصمتت.

بعد نقرات، استفسر عن المبلغ المقصود، رفعت يدي وجلًا صامتًا، في إشارة إلى أن المطلوب خمسون درهمًا. رمقني بنظرة ذات معنى، ناولني بطاقتي الإلكترونية، وطلب مني توقيع ورقة الإيصال، ثم طواها ودس الورقة الخضراء بسرعة بين طياتها، لإخفائها عن عيون المرأتين، وقد أحس بورطتي.

أرمق - لثوان معدودات- جملة تتوعد بالعقاب: "كل من حرف أوراق البنك أو زورها....."، دون أن أكمل قراءتها . وجدتني أستحضر الطفل الذي كنته، وأنا أتشمم ورقة مالية برائحتها المميزة. حتى اليوم، مازلت أتشمم الأوراق النقدية خلسة، بعد أن نهرتني أمي، ذات صبا.

لم أصارحها بأنني أتذكر أبي الراحل، الذي كان يناولني ورقة مالية، وهو يمارس هذا الطقس الطفولي.

أحتمي بالطفولة البعيدة، لأتذكر إن كانت الديباجة القديمة تعاقب من "حرق" و "مزق" الأوراق المالية أيضًا، أتساءل: "لماذا حُذف الفعلان؟ هل فطنوا إلى أننا نعبد المال في هذا الزمن، ولا أحد يمكنه أن يقترف هاتين الحماقتين؟".

اجتزت البوابة، وفوجئت بأصابعي أنجزت المهمة بمهارة فائقة، وقد طوقتني المرأة التي لا يظهر من وجهها سوى العينين.. بصوت تدرّب على الالتياع. فكرت في أبنائها الثلاثة - أكبرهم بنت في سن المراهقة- الذين جندتهم معها، فاحتكروا التسول بهذه المنطقة، ذات الزبائن المميزين، من رواد البنك، المقهى الفاخر والسوق الممتاز المجاورين. انتابني إحساس غامض...

ذات مساء صيفي، والساعة قد شارفت العاشرة، كنت أتجول مع صديق بالقرب من البنك، حاصرتنا ابنتها بتسولها الذليل، صارحتنا بأنها لا تستطيع العودة إلى البيت إلا بعد أن تستوفي مبلغًا محددًا، تجنبًا لعقاب الأم.

ألفيتني أرمي مزق الورقتين في وجه المتسولة الأربعينية، وبحركة سريعة من قدمي اليمنى، تطاير في الهواء صحنها البلاستيكي القذر، بقطعه النقدية، فأحدثت رنينًا لافتًا عند ارتطامها بالأرض.

حـنيـن

أنزوي تحت شجرة التين الهرمة والوحيدة، أرنو بحزن فادح إلى الأشجار، والعشب الذي علته النفايات والأوراق المتساقطة. أشير إلى صاحبة العربة، ذات الملامح القاسية : "قهوة سوداء". أغوص في أعماقي، وأتابع شريطا سينمائيا لا يراه سواي...

وجدتني طفلا في ربيعه العاشر يركض، ذات مغيب، خلف قطيع غنم ممتلئا بالحياة، في قرية يخيل إلي - هنا والآن- أنها صارت بعيدة، بعيدة جدا.. !! أحسست بأنني في أمس الحاجة إلى أن أتوسد ساقها، وأسألها عن حيواناتها ودواجنها، وعن الأشجار والنباتات.

أزف الغروب، فتضاعف حزني المشوب بحنين موجع...

***

هجرت قريتي بعد أن علت الأطباق الهوائية أسطح بيوتها، واغتال الإسفلت ممراتها الزراعية، وصرت أبحث عن ملامح ذلك الوجه الأليف، ذي التجاعيد المحببة والآسرة في ملامح العجائز العابرات...

***

ابتعد، وإلا سأنادي الشرطة !

صرخت العجوز التي اعتدت رؤيتها في حينا، تتوكأ عصاها وأتانها تسبقها. أقبلت عليها، وقلبي يخفق بشدة. كانت تجلس على الرصيف وتشد لجام دابتها، التي تتململ مستعجلة العودة إلى البيت، فتحدثها

العجوز، كما لو كانت تدرك ما تقول؛ تترجاها أن تصبر قليلا حتى تستريح، تحرك الأتان رأسها في غضب طفل مدلل، كأنما تحثها على النهوض، تغمغم المرأة وهي تستوي واقفة: "الله، يا ابنتي.. الله.. مالك؟". دنوت منها أكثر مدججا بشوق نصف عقد، كأنما أدنو من جدتي، التي رحلت قبل خمسة عشر عاما، وندت عنها صرخة...

تجمهر بعض المارة، ولامني أحدهم معتقدا أنني أفكر في سرقة ما يجود به عليها الناس. ابتعدت دون أن أنبس بكلمة، وأحسست بدمعة ساخنة ومالحة تغازل شفتي.

نعش طائر

1

يوم الإثنين، علمت أن والد جارنا فارق الحياة في المهجر، واليوم (الجمعة) لمحت نعشه يحمل في سيارة الموتى، لكي يوارى الثرى في قريته. بقيت طوال الأيام الماضية مكتئبا، أتذكر إجراءات السفر الروتينية حد التقزز، التي صادفتني قبيل رحلة الخرطوم، وأفكر في هذا المأتم الباذخ، وأحد الجيران أبى الذهاب إلى بيته، قبل أن يترجم ثواب ذهابه مع الجنازة إلى وليمة.. احتقرت انتظار المعزين، المتناثرين بالقرب، كطيور جارحة تتأهب للانقضاض على فريستها. ربما، لم يخطر ببالهم ثلاجة الأموات، والطائرة التي تحمل نعشًا... خيل إليّ أن جارنا "م" لا يفكر سوى في بطنه، وأنا أتعذب - وحدي- بحزني الشفيف؛ فقد لازمني طوال الأيام المنصرمة هاجس أليم : " بمَ سيحس ركاب الطائرة إن علموا أنها تحمل نعشا؟".

*****

لم يسبق لي رؤية الجار الميت، لكن حزنًا كريهًا لازمني منذ يوم الإثنين. لا ملامح لحزني.. (ربما) لأنه لم يسبق لي أن رأيت ذلك السيد. أتخيل جسدا متجمدا بلا حراك، كان نابضا بالأشواق، تناسوه بُعيد دفنه.. أحس بلا جدوى الحياة، حين تقتحم المشهد الجنائزي امرأة، وأفكر بصوت عال: "هل يستحق هذا الجسد الفائض أنوثة وسحرا أن يلقى نفس المصير التعيس لذلك الجار التسعيني؟ هل تستحق الوردة أن تلقى بين القاذورات؟ هل ستتحول - بدورها- إلى وليمة يفترسها طفيليو المآتم؟".

2

لأن هذه اللقطة موغلة في الأسى، سأكتب عن لازمة أرددها - يوميا- لمداعبة صديقي "مبارك". كانت تلك اللازمة جملة تلفظ بها أحد أقاربنا، حين لمحته من فوق ورش البناء، ويبدو أنه لم يطق رؤيتي بذلك الحي الشعبي، وربما، لعن - في تلك اللحظة- البنائين، لأنهم مثل العطارين، يتنقلون من مكان إلى آخر.. بسبب تحية تبطن الكثير من السخرية. اختفى الرجل من ذلك الحي، فتسببت في "قطع رزقه".

لمحته من فوق بغلته، وهو ينادي بصوته المبحوح : "نخالة للبيع" في ذلك الحي الشعبي، وكانت عبارته الأخيرة : "انت هنااااا.. وسيرْ الله يعاااااون..".

أرددها لصديقي يوميا، وأضحك..

لقد مات الرجل، وبقيت عبارته خالدة؛ (هل ستخلد حقا؟ أم أن صفة الخلود هنا مجرد مبالغة لغوية؟). أرددها، وكأنني سمعتها منه للتو.

لم يعد له أي أثر، بل، لعل عظامه تلاشت.. لقد اختفى من هذه الحياة، مثلما اختفى من ذلك الحي من قبل، لكن هذه المرة لن يمكنني رؤيته في حي آخر. لو مت، أنا أيضا، هل ستتذكرون قصصي القذرة فقط؟ أم ستتذكرون عدوانيتي، نزقي؟ ومن ستخطر بباله حساسيتي المفرطة ذات ليلة منذورة للبكاء المترنح؟

3

مساء، في طريقي إلى البيت، لمحت جارنا "ع"، مع صديقه وشاب آخر، وكانت أمامه القطة. كانت تبدو كسيرة الفؤاد. مثلما رأيتها أمس، وكانت تموء مواء خافتا، كأنه توسل منكسر. سألته مازحا، مثلما اعتدت كلما أنجبت القطة: "فينا هي الرفيسة؟"، وكأنه يفترض أن يقيم حفل عقيقة لصغارها، والذين لمحتهم يوم الأحد في علبة كارتونية، بعدما وضعتهم والدته أو أحد أفراد الأسرة ليستمتعوا بدفء شمس ظهيرة ذلك الأحد. ندمت لأنني لم أصورهم، ولم ألاعبهم، كما فعلت - من قبل- مع إخوتهم.

أمس، خمنت أن الأسرة حرمتها من أبنائها برميهم، (لكن لا يعقل أن يفعلوا ذلك، فالصغار- ما زالو في حاجة ماسة إليها، وهي كذلك).

تضاعف حزني حين أخبرني أنهم سرقوا أبناءها، فتركوها ملتاعة....

كرسي متحرك

أجلس إلى الكرسي الوحيد الشاغر، لأحتسي كوب شاي في ما يشبه مقهى شعبيا، على ضفة نهر مدينة هادئة وبسيطة. كنت في حاجة إلى أن أكون وحيدا حد اليتم؛ لم أكلم رفاق الطاولة، حتى لا يقتحم أحد عزلتي.

كنا خمسة، سادسنا حزني الذي تفاقم حد الانكسار والتلاشي، ولازمني مذ ضيّعت مشروع رواية بضغطة زر خاطئة، فتبخرت من حاسوبي الشخصي. غمغمت : "ضاعت الحبيبة، وضاعت الرواية. يا الله!".

سخر العجوز الجالس على يميني من رفيقه المقابل له، فانتفض الأب قائلا : "هل أترك ابني الذي يتصل بي من "الطاليان" (إيطاليا) يرن، ولا أرد على الهاتف؟"، وأعاد العجوز المشاكس تمثيل حركة صديقه، الذي نسي السجود وخشوع الصلاة، وراح يبحث بيدين متلهفتين، كقلبه، عن الهاتف النقال، في جيوبه داخل المسجد. وتحدثت الأرملة بقلب ملتاع عن ابنها المراهق، الذي تفعل المستحيل لكي لا يحس بأي نقص أمام أقرانه؛ تحدثت عن ملابسه الكثيرة، التي تجلب امرأة لكي تنظفها له، وفشله في الدراسة، رغم الدروس الخصوصية، حتى لو كانت تتسول في الحافلات، لكنه هرب من البيت، ولا تعرف إلى أين، وتخشى أن ينحرف ويلازم رفاق السوء.

اقترب شاب ثلاثيني من طاولتنا، وهو يحرك قدميه على الطريق المترية، أمام الكرسي المتحرك، دون أن يعتمد على حركة ذراعيه، وعلى ملامحه يرتسم حزن جليل يليق بشاب مقعد، ألفيتني أنظر إلى الجهة الأخرى، ورائحة "السيليسيون" تنبعث من ثيابه. من طاولة مجاورة ارتفع صوت امرأة تقسم أنها رأته صباحا يمشي على قدميه، وبدأ يشتمها بأقذع

السباب. انتظر أن يجود عليه أحدنا بصدقة، فلم نعبأ به، وفكرتُ في مغادرة المكان بسبب الرائحة التي لا تطاق، وانتبهت إلى ضيقي صاحبة الطاولة، فأمرته أن يبتعد، لأن زبائنها لا يملكون نقودا، فقال بنبرة حزم، لا يتناسب والحزن الذي كان يكسو ملامحه: "دعيني أترزق الله".

دون اتفاق مسبق بيننا، تواطأنا على الصمت، عله ينصرف، بيد أن الأرملة، التي اعتادت أن تجلس إلى هذه الطاولة، بسبب كرم صاحبتها.. عاتبته بأمومة مشيرة إلى أنه قد يصير مقعدا بالفعل، فلم يعبأ بكلامها، وقال: "لا ينفع معكم إلا الحيلة". نهرتها صاحبة الطاولة في حدة : "اجلسي صامتة أو قومي.."، ورفعت يدها باتجاه الحافلة التي أوشكت أن تنطلق، بعد أن امتلأت كل مقاعدها...

في زهو، فتح الشاب المقعد كيسا بلاستيكيا مليئا بالخبز، متباهيا أمام الأرملة بحصيلته اليومية، التي تفوق ما يجود به عليها ركاب الحافلات، لأن الناس يتعاطفون مع إعاقته، وأخرج من جيبه قطعا نقدية، وراح يعدها، ففتحت حافظة نقودها، واستعرضت مجموعة من الأوراق المالية، وقد تهللت أساريرها، ورفعت - بأسى جريح- كيس الأدوية الذي يلازمها...

قال لنفسه بصوت مسموع: "إنها تكفي لشراء "السيليسيون*" !". استوى واقفا، وصاح بابتهاج : "أنا.. الآن بخير"، ودفع أمامه كرسيه المتحرك، وشهقت امرأة الحافلات، كأنما تذكرت شيئا مهما نسيته : "إنه كرسي ابن زبيدة الأعرج، وهو يستأجره منه...".

ضج المكان بالضحك، وهو يبتعد عن الأنظار دافعا أمامه الكرسي، ويده لا تتوقف عن رفع سرواله المتساقط.

---

* لصاق يستخدم كمخدر رخيص

جيـــران

بقيت تلك العبارة ترن في أذني على الرغم من أنها لم تكن موجهة إليّ، بيد أن شكوى زميلي نكأت جراحًا لا تندمل : ''يمكنك أن تنتقل من هذا الحي إن لم يعجبك الحال !''. حاولت تخيل ملامح ذلك الجار، وهو يتفوه بها غير مراعٍ أنه مربي أجيال. لم يكن يعنيني أن ابنه المراهق لا ينام إلا صباحًا، فذاك شأنه، وغمز بعينه حين مرقت سيارة كالبرق من أمام المقهى، وغمغم : ''هذا ابنه''. ومن جوفها، تتناهى موسيقى صاخبة...

- الموسيقى هكذا أيضا في البيت.

لم أعقب، إذ تعطلت لغة الكلام، وتابع محدثي :

- الضجيج يخترق الجدران، ويقض مضجعي.. هذا الصعلوك يقضي سحابة نهاره نائما، وبمجرد أن أضع رأسي على الوسادة تبدأ حفلة الفوضى... غير عابئ بأطفال يستيقظون مبكرًا للذهاب إلى مدارسهم، وآباء ليسوا مثله ومثل والده...

- .....

- هذه المرة، سأتصل بالشرطة.. لن أراعي حرمة ''الجورة''. والده استفاد من التقاعد المكبر، وتحول إلى سمسار عقارات. ترك مدينته، وجاء إلى هذه المدينة ليحول حياتنا إلى جحيم. كان الحي هادئًا.. بعد آذان العشاء لن تجد حتى قطًا في الشارع.

- حين كنت عاطلًا عن العمل، لم أكن أنام إلا صباحًا، لكن لا أحد يعرف إن كنت نائمًا أو مستيقظًا.. لا يعرفون إن كنت حيًّا أو ميتًا...

- يا عزيزي أنت شاعر، وأغلب الفنانين كائنات ليلية... أما هذا البائس فليس لديه ما يؤرقه.. لا عمل... لا دراسة.. ولا يفكر في المجهول، ولمَ يفكر فيه، وهو غارق في النعيم؟ ومع ذلك يؤجر هذا المدرس/ السمسار بيته مفروشًا، ويسافر إلى العاصمة، حيث يغيب أيامًا، ويتركنا أسرى أوغاد كابنه وزوار منتصف الليل... كل يوم، ثمة مستأجرون جدد، لا ينامون إلا صباحًا...

شردت برهة، ووجدتني أنسى صخب المقهى وسحب دخانه الخانق.. وغرقت في حيرة، فكرت في ابن جارتنا المراهق، حاولت الربط بين طلاق أبويه، وانقلاب أحواله، واستغربت كيف يربي بعض رجال التعليم أبناء الآخرين، وينسون أبناءهم. تذكرت حين لمحته يسب أمه، وهي تدعوه للدخول، لأن الوقت قد تأخر.. فابتعد، وتوسلت الأم إلى صديق ابنها، في انكسار، لكي يحضره...

- أنتم جيران، ويجب أن تحلوا هذا المشكل بهدوء.

قلتها بنوع من المواساة، وأنا أحس بأن كلامي بلا معنى... استويت واقفًا، حاولت رسم ابتسامة ما على شفتيّ، وقلت لزميلي بفتور : ''عيد مبارك سعيد''، وغادرت المكان بقلب منفطر.

***

دون أن أدري، قادتني قدماي إلى مرفأ الأحزان..إلى المحطة.

على متن الحافلة المتوجهة إلى ''غربستان''، اندلع صياح نسوة انتشلني من شرودي الناعس، وانتبهت إلى أن جارتي الصغيرة كانت تخفي حيوانًا ما في حقيبتها المفتوحة، كنت سأسألها عن فصيلة ذلك الحيوان، الذي لا ألمح سوى جزء من فروة ظهره، ذات اللون الأخضر الغريب.. لون زي العساكر، وكبحت جماح فضولي أكثر من مرة، لأنني أمقت هذا اللون ! ومن حين لآخر، كان والدها الكهل يلتفت إليها، متغضن الملامح، ويصوب بصره نحو الحقيبة المهترئة. كنت أتأمل ملابسه محاولًا رسم

"بورتريه" للرجل في مخيلتي، وتخيل مهنته... بدا متصالحا مع ذاته على الرغم من بساطة مظهره.

توقفت الحافلة عند نقطة تفتيش "شرقستانية"، صعد رجلان من حرس حدودنا، وحين أصرّ أحدهما على تفتيش حقيبة جارتي الصغيرة، وقد اشتعلت شرارة فضولي مرة أخرى، قفز قرد صغير، واندلعت صياح النسوة المذعورات، والقرد يتقافز فوق الرؤوس والأكتاف. قال "القرداتي" مازحًا :

- أليس من حقه - مشيرًا بيده إلى القرد الصغير- أن يزور أبناءه في هذا العيد ؟ اللعنة على قوانين الأحوال الشخصية.

سايره الضابط في مزاحه، وسأله باسمًا:

- وماذا يفعلون هناك؟

- إنه أبغض الحلال... ولأنهم مازالوا صغارًا، فالأم من يحق لها أن تكفلهم...

اندلعت عاصفة من الضحك في الحافلة...

- هل تعرف بأن هذا ممنوع ؟ إذًا، تدبر أمرك معهم...

- إنه مورد رزقي الوحيد. هنا أو هناك سيان.. ثم إني لا أريد أن أتحدث في السياسة، حتى لا....

وصمت الكهل على مضض، والتفت إلى القرد، المتربع فوق كتفه، وطلب منه أن يحيي الضابط، فمد الحيوان الهزيل ذراعه، وقال له : "قبّل عمي..."، وبدا القرد مطيعًا، انحنى قليلا ومط شفتيه، لعلعت قهقهات الركاب، وارتسم على ملامح الضابط اشمئزاز فصيح..

بدأت الحافلة تنهب الطريق، وخفق قلبي، حين رأيت أفواجًا من الناس من الناحيتين يلوحون بمناديلهم لأناس الجهة الأخرى، حيث انتصبت بينهم أسلاك شائكة حرصوا على الابتعاد عنها، ويسيرون بمحاذاة السياج في اتجاه البوابة الحدودية..

***

أي طعم للعيد إن لم يستطع الأقارب لقاء بعضهم البعض في يوم كهذا؟ تساءل جدي، والدمع يكاد يطفر من يعينه، وكنت أتربع أمامه، لا أفقه حديثه... فلأول مرة أسمعه ينطق بكلام غريب.. أشرار البلدين من أفسدوا العلاقات بين البلدين الجارين. تبّا للمهربين واللصوص.. مشاكل النزاع على "الحدود" تتكرر في كل قرية، بداية كل موسم فلاحي، لكن الوضع هنا يختلف، لأن نزاعات الفلاحين تصير حديث العالم، يسمونها أزمات سياسية.. مشاكل الحرث تتكرر كل عام، وبدل الاهتمام بفلاحتهم تحرقهم الشمس على أرصفة المحاكم بسبب الطمع في "خط حرث" من أرض الجار أو تغيير حجرة الأساس أو تضييق الممر الزراعي.. كل واحد يسرق خطا أو خطين من ناحيته، فنجد صعوبة في الوصول إلى حقولنا.

أرنو إلى الحقول الخضراء المترامية، الممتدة كبساط يبهج مرآه القلب، وألفيتني أفهم كلام جدي الراحل، وأفتقده حين أرى بدوا يركبون حميرهم أو بغالهم، واندلع في دواخلي حنين قاتل إلى تلك الأيام الغاربة التي لن تعود.. إلى قريتي التي اقتلعت جذوري منها.. ما جدوى أن أكون شاعرًا، إن كان كل ما أكتبه لا يعيد إلي لحظة واحدة من طفولتي الشجية؟

لو لم أخش أن يظن ركاب الحافلة أنني معتوه لصرخت بأعلى صوتي مناديًا عليهم، ولوحت لهم بيدي...آه، ليتني أستطيع رؤية ملامح أولئك البدو عن قرب، حتما هناك من يشبه جدي... ! وارتسمت على شفتي ابتسامة حين تذكرت عقاب جدي، الذي كان قاسيًا لأول مرة في حياته، حيث عاقبني بسبب سباق الحمير.. بسبب حبه لحيواناته، رأى في لعبة السباق قسوة على دابته. قلت له : أتضربني (وكان يحبني جدا)، من أجل حمار أجرب ؟.. واندفعت غارقا في نشيجي، فتبعني لكي يصالحني، وهو يضحك ويلهب بسوطه ظهر الدابة..

ها قد جئت زائرًا هذا البلد، القريب/ البعيد.. لزيارة عمي الغربستاني، الذي استقر في "شرقستان"، بعد أن تزوج شرقستانية، علمًا أن أمي كانت

تتحدث باستياء قبيل سفري، فهي ترى أن هذا البلد لا يجلب لنا سوى صداع الرأس.. وكلما تحدثت عن شوقي إلى عمي، وحتمًا، كانت تفطن أنه شوق غرامي وليس عائليا. إذًا، لم تركونا - أنا وابنة عمي - نعيش في هذا الوهم الجميل منذ طفولتنا؟.. أمي تكرر دائمًا : لو شئنا أن نذهب لزيارة أصهارك، سنحتاج إلى طرق ألف مكتب ومكتب من أجل تصريح... هي تتصرف هكذا حتى أتزوج ابنة أختها، القريبة منها، ولكي ترتاح من مشاكل السياسة... مع أنها من أخبرني أن عائلتنا وباقي العائلات في القرية - ومنذ أربعة أجيال أو خمسة- يختارون دائمًا عروس أحد الشبان من القرية الأخرى/ البلد الآخر. كانوا يتنقلون بمرونة. لم تكن هناك أية حدود أو أسلاك شائكة...

رفعت رأسي، رأيت الأسلاك الشائكة المنتصبة كشياطين بغيضة، وكفكفت، على استحياء، دمعي، وغرقت في شجن تلك الذكرى وتفاصيلها، حين رأيت عجوزًا مقعدًا، والحافلة قد توقفت عند نقطة تفتيش، تحت جنح الظلام.

أقسم صديقي أن يتحدى كل شيء، ويقابل والدته، التي أصيبت في حادث مروري، وهي في البلد الآخر، حيث جاءت لزيارة ابنتها. كانت الحدود مغلقة - حينئذ- بسبب أزمة دبلوماسية بين البلدين، ناولت الرجل أوراقي، وعيناي ترنوان إلى الأفق البعيد، وغمغمت : "هذه أرض واحدة. أناس يتحدثون لهجة واحدة، لونهم واحد، ملامحهم واحدة، دينهم واحد...".

حينما لمحنا حرس الحدود، نصحته بالعودة، لكنه قرر أن يعتلي الأسلاك.. بعد أن يبتعد عن مرمى بصر الحرس...

في طفولتنا، كنا نرعى في أرض واحدة، رغم تحذير الكبار لنا، وفي المساء، تختلط قطعاننا، حيث يعلو ثغاء كبش من القرية الأخرى اندس بين إناث القطيع، ونكافأ بضرب مبرح من آبائنا. غريب أمر هؤلاء

الكبار، يحذروننا - نحن الأطفال- ويلتقون في سوق واحد، ونسمعهم في أحاديثهم الخافتة يتباهون بشجاعة بعضهم في كسر الحصار العاطفي المضروب على البلدين.. في شبابهم !

هم أصهار وأصدقاء، وإن فرقت بينهم السياسة، وألقى محترفوها كل اللوم على المهربين والمجرمين.. ويرددون : شرقستان بلد المهربين، حيث تنشط تجارة السوق السوداء، وغربستان لا تفرخ سوى لصوص الأغنام والحمير. هكذا.. !! إنه عار تلك النقطة السوداء، حيث استقرت - قبل عقد من الزمن - قبيلة من الرحل، أصروا على عدم الخضوع لأي بلد...

حذرت صديقي من التقدم نحو السياج. كان يصرخ : " ولكنها..."، تبخرت كلمة (أمي). لم يكمل عبارته، إذ رأيته يتطاير في الهواء، مع دوي انفجار، رنوت مصعوقا إلى ساقه، وهي تسقط في اتجاه مغاير. وجدتني أصرخ صراخًا هستيريًّا، وساقه تحلق مرة أخرى أمام ناظري، كما اعتادتْ أن تفعل في ليالي الكوابيس. توقفت الحافلة، وأنا أصرخ بلا وعي : "أنتم السبب...". التفت ناحيتي كل الركاب، والحافلة تتوقف أمام حاجز مروري. أحسست أنني أستعيد نصفي الآخر، النصف المشطور من روحي والمنسي هنا، منذ طفولتي.

انتبه ضابط شرقستاني إلى أنني أحدق باهتمام واضح في قطيع غنم، وقال ساخرًا : هل تخطط لسرقتها؟ إنها ليست كغنمكم الجرباء الكسيحة. لكز كتفي بسلاحه، وزميله يتحدث إلى رؤسائه، وفي لمح البصر أقبلت سيارة عسكرية.

استحضرت ما قرأته في صحف البلدين عن اختفاء رجال صاروا في عداد المفقودين. يتم احتجازهم من طرف البلدين : بلدكم لا ينجب سوى المخربين.. نحن لا نريدكم... يكفي أنني أتنفس وصديقي - الآن- هواءً واحدًا... كنت أراه يبتسم من فوق كرسيه المتحرك متصالحًا مع كل ما حوله، وتناسيت الجنود متجهمي الوجوه، ووجدتني أستعيد طفولتي،

وآباءنا الذين كانوا يحذروننا من اللعب في "الواد"، تلك الأرض الخضراء الشاسعة، التي كانت ملتقى رعاة القرى، ولم أعرف أن الرعاة من بلدين مختلفين إلا في المدرسة، وأنا أتأمل خريطة وطني غربستان...

ذات صباح، رأينا معدات وآلات. كانت تحفر، وثمة شاحنات كبيرة تنقل أكوام التراب.. وهي تتلف المحاصيل، ولا أحد يستطيع أن يحتج. لم أعرف السبب...

الآن، فهمت أن هناك أشخاص في مكاتب أنيقة وفخمة يصنعون تعاستنا. كان فلاحو الضفتين يتحسرون في صمت على ما يحدث.. قررنا - نحن الصغار- ليلا أن نتحدى الوضع، ونحن نراقب العمال... لكزني الرجل، وأنا مطرق الرأس، وقد تعثرت وارتسم على ملامحي فرح غريب، ورأيتني صغيرًا أركض مع أطفال قريتنا وأطفال القرى الأخرى لنلتقي في "الواد" في جنح الظلام.. بعد أن غادر العمال بمعداتهم إلى مخيمهم.

متلفعين بعباءة الليل، فتحنا أذرعنا الصغيرة لنحتضن أحبتنا، ونحن نركض في اتجاه بعضنا، مثل عصافير مبتهجة بتحليقها. اندفعنا دون أن ننتبه إلى الشريط المطول الفاصل بيننا، فسقطنا متعانقين في قاعه، ارتطمت أجسادنا الغضة، واختلطت آهات وجعنا بضحكنا الطفولي، الذي مزق سكون "الواد".

قصة حب فيسبوكية

رنّ هاتفه المحمول.

إنه رئيس تحرير الجريدة. هذه أول مرة يفعلها، بيد أن المكالمة أنقذته من ورطته...

تمّ كل شيء بسرعة، وهو عائد من مدينة أزمور، التي اعتاد التسكع فيها بحريّة، لأن لا أحد يعرفه فيها، واصطدمت عيناه بتلك البدوية. شمّ الذئب القابع في دواخله رائحة الفريسة. راح يلتهم بنظراته شموخ صدرها النافر المتصلب، وأصابعه تحترق شوقا إلى عصر فاكهته.. كانت امرأة تفتقر إلى لمسة جمال وأناقة، تفتقد ما يسرق القلب ويخطف البصر.

عند مغادرتهما حافلة أزمور، سألها : "كم الساعة؟"، وهو يدسّ هاتفه المحمول في جيبه، تبادلا بضع كلمات، وفي انتظار الحافلة، ضمّ ساعديه عند صدره، حاجبًا نهدها الأيمن، وتسللت أصابع يمناه، ممارسة طقس قرص نهدها خلسة، وبعد دقائق غادرا الحافلة، وطلب منها أن تسبقه، وتدخل بيتا مهجورا...

***

في مقصورة قطار الجديدة، غاص قلبك في بحيرة شجن، وقد خدّر حواسك عطر المرأة المجاورة لك، والشمس تحنّ إلى معانقة سمرة المغيب الشاحبة. شرد لبك برهة، وأنت على شفير النشيج..

قبل ست سنوات، مدججا بالأشواق كنت تنتظر اللحظة، التي ترسم فيها الشمس تلويحة وداع على الجدران. تنتظر الساعة الخامسة والنصف، حيث تغادر الورش، وكأن الريح تحتك، في اتجاه الملتقى، مختلسا لحظات بهجة في حضرتها.

في الطريق، فكرت في قرار ربّ الورش بأن تعودوا إلى التوقيت العادي؛ لن تغادروا حتى الساعة السادسة مساءً، تلعن فصل الربيع، وتتمنى لو أن كل فصول السنة خريف وشتاء، حيث تداهم العتمة الورش مبكرا. لن تغادر إلا بعد وصولها إلى البيت، ولن يمكنها أن تخرج بعد ذلك.

في طريق عودتكما إلى بيتها، انتابك فرح غامر، وهي تلمّح- وبنبرة ملتاعة- إلى أنكم أوشكتم على الانتهاء من البناء. أدركت أنها تحبك وستفتقدك.. حتى لو لم تنطق بهاتين الكلمتين العذبتين.

أهو الخوف من ألا تراك ثانية؟

في الصباح، بدوت حزينًا، عند نقلك إلى ورش آخر، بدون سابق إعلام، ومن مقر عملك الجديد، أرسلت إليها رسالة قصيرة (sms) تبلغها بذلك. مساء، عند وصولها إلى البيت، اختلست سعاد نظرة إلى الورش، ولاح لها صديقك، الذي تمازحه بـ"خُو البْهَايْمْ" واقفا في الشرفة، ولأنه كان في مثل سنك، فوجئت بها تتهمك بأنك تتهرب منها.. رأيتُكَ، وكنتَ ترتدي "جاكيت الجينز". وفي دقائق، وجدت نفسك عند الورش، تصبّ جام غضبك على صديقك.

لا تنكر أنه من أهداك هذا الحب، حين أخبرك - لأنه كان يبيت في الورش- أنها تمرّ في هذا التوقيت. لكن، ليس معنى هذا أن يستمر في مراقبتها، وهو من رآها عند دكان بقال الحي، ولم تكن ترتدي الجلباب.. ثارت ثائرتك : لماذا تخرجين ليلا، وأنت تعرفين أن المكان مليء بالبنائين، وأغلبهم بدو وأوباش؟ فليذهب غيرك للدكان. أنا جئت للاتصال بك. لا تتصلي بي، ولا تخرجي ليلا.. ثم ماذا كنت ترتدين؟ هل تظنين نفسك في البادية، حتى تخرجين بثياب البيت؟

قبل أيام، أخبرتك أن هناك من اتصل بصديقتها هاتفيا، وخمنتْ أن يكون ذلك الشاب، الذي كان يتلصص عليها، وهي تركب رقم صديقتها في مخدع الهاتف العمومي، المجاور للدكان، فحفظ الرقم.. زفرت : هؤلاء

الغوغاء، أولاد الـ...

أرسلت إليها رسالة قصيرة ورنة، تعلمها أنك قريب من البيت، وأنت تعرف أنك لن تراها، ولن تطل من الشباك في وجود أخيها، كئيب السحنة.. أف، لماذا خلق الله للحبيبات إخوة نتعذب بسببهم؟ نادية هجرتها، وهي مغرمة بك، باحثا عن حب آخر، بسبب إخوتها البغال.

***

أنقذته مكالمة رئيس التحرير من ورطته، وكان يمشي بجوار عانسه البدوية، وهو يلتفت يمينا ويسارا، مفكرا في أنجع طريقة للتخلص من هذه البشعة، التي تبدو، وكأنها جدته.. تصر على أخذ رقم هاتفه المحمول، وهي تعبّر له عن افتتانها بها من أول نظرة... لم يحدث أن تغزلت به امرأة من قبل هكذا، لكنه لن يقع في حبائل هذه البدوية. ناور، طلب منها رقم هاتفها، حتى يتصل بها حين تزور مدينته في المرة القادمة. اعتذرت بأنها لا تملك هاتفا محمولا..

لم نبال بنبرة الحنين الفائض في صوت شابّ لا يزور قريته إلا في الأعياد، حين اتصل "أخو البهائم" بأخيه الأصغر، اندلعت عاصفة من الضحك، بعد أن سأل أخاه عن كل شيء، وقبل أن ينهي المكالمة، وكمَنْ تذكر شيئا.. بلهفة هتف : " واشْ الحْمارة وِلْدت؟"، ثم استطرد بفرح متسائلا عن جنس مولود الأتان : "آشْ ولدت؟".

***

رنّ هاتف ذات العطر، وبدأت توشوش مغلفة بيدها الجهاز.

قبل قليل، كانت تتحدث مع المرأة المقابلة لنا في مقصورة هذا القطار- الخردة.

ذات رحلة بيضاوية، تعرفتُ على تلك الثلاثينية، التي لم تشأ أن تصارحني عن وجهتها في مدينتي، أو عن صلتها بمن جاءت لزيارتهم. أيمكن أن يكون حبيبا تبيت في حضنه ليلة، وتعود إلى مدينتها؟ لم تكن

جميلة بما يكفي، بيد أن جسمها أصابني بالدوار.

في ظهيرة اليوم التالي، أرسلت لي رسالة قصيرة تبلغني فيها أنها في محطة القطار، وطلبت مني إحضار سمك، وألا أتأخر.. أيعقل أن يتركها من كانت في ضيافتهم، تسافر بلا غداء، ودون أن يودعها أحد؟

صمّمت على أن أصطحبها حتى الدار البيضاء، ألفيت نفسي غارقا في التقاط صور لها بهاتفي الجوال، وهي ترشقني بابتساماتها. تحدثتْ عن صعوبة لقائنا، واقترحتْ أن نلتقي في الدار البيضاء، كل أحد. فكرت في مشقة وخسائر حب كهذا، وكل واحد منا قادم من مدينة، ونلتقي كغرباء في مدينة أخرى. أخبرتني أن أحد الخليجيين يزعجها بمكالماته الهاتفية.. (في ما بعد ستكون أنت المطارد باتصالات تلك الجدواية، غير العابئة بتكاليف مكالمات دولية تتعدى الخمس دقائق، يا لهذا القلب العابر للقارات !!).

نصحتها بأن تفتح الخط، تبعد الجهاز عنها، وتتركه يتكلم كما يشاء.

لا أدري، لماذا أحب أن أكون الوحيد في حياة كل امرأة؟

لسعتني الغيرة، وهي تحدثني عن أصدقائها الكثر، وإحساسها بالوحدة، وهي على مشارف الأربعين... أحتاج إلى رجل. أف، إنها أسطوانة العوانس !

مابك؟ سألتني، وهي تزيح يدي، وأنا أطوق خصرها، فتشير إلى أنهم ينظرون إلينا. لا أحد يعبأ بنا، كل الموجودين بالمقصورة شباب مع صديقاتهم، ولن يهتموا...

تبا، هذه لا تصلح لأي شيء. ليس من المعقول أن أسافر كل مرة، ومن أجل لا شيء... وألفيت نفسي أدرب قلبي - مرة أخرى- على النسيان، المخضب بالألم. لا، لن أحب مرة أخرى من أجل الحب.

***

أنا لا أحب السفر في التاكسي، قالت ذات العطر.

فكرت في سائقي سيارات المرسيدس المجانين، الذين يخاطرون بأرواح

المواطنين، والمرأة تسرد للسيدة، التي شاطرتها عدم حب السفر عبر سيارات الأجرة، وتتحدث بكثير من الغرور عن جعلها سائق حافلة يخرج قبل موعده، وتأنيبها للرجال على صمتهم وتغاضيهم عن جشع السائق. قلت في سرك : أنت، فعلا، خلقت لكي تكوني رجلا. فلا أثر للأنوثة فيك، تماما مثل تلك العانس البنّورية. على الأقل، ما شدني في بدويتي نهداها المتصلبان. استرقت النظر إلى جارتك ولاح لك سروال الجينز، الذي يخنق تفاصيل جسدها الثر، وهي تتحدث عن نجاتها من الموت، بعدما انفتح الباب بغتة، والسيارة تمرق، وكاد جبينها يلمس الإسفلت، فسارع الراكب المجاور لها بشدها من ذراعها... أخبرتُ زوجي وأسرتي، وكانوا في انتظار السائق، لكنه سلّمنا في محطة أزمور لسائق آخر. رن هاتفها مرة أخرى، وكل مرة، كنت تتابع وشوشتها باهتمام... أيعقل أن هناك زوج يتصل بزوجته كل خمس دقائق، وتتحدث معه بصوت خافت؟ إن من يتصل حبيب يريد إطفاء نار أشواقه على السرير.

سيدتي المحترمة، لقد اعتدنا أن نفعل مثله مع (...)، نتصل كل دقيقة للسؤال عن سبب التأخير.

***

انتزع الشريحة المستعارة من جوف الجهاز، ضغط عليها بإصبعين فانشطرت جزأين، رماهما في بالوعة. وهمس لنفسه : الآن، يمكنك أن تتصلي بي، وعند سؤال شركة الاتصال، لن يُعرف صاحب الرقم، لأنه بلا عَقْد. أنا لست غبيا مثلك، يا عاهرة الفيسبوك.. تجودين بأرقام هواتفك على كل من هبّ ودبّ. هل تعتقدين أنني سأعطيك رقمي الحقيقي، مثلما أرسلته في رسائل خاصة لكل من عرفته؟

سألته إن كان الرقم، الذي يتصل منه رقم هاتف البيت، رد بحزم : لا. إنه هاتف عموميّ.

***

لا يرغب في إعطاء رقم هاتفه الجوال لأية امرأة، حتى لا يتألم مرة أخرى، وهو لا يرد على اتصالات حبيبته السعودية. ما جدوى حب امرأة لن تستطيع مقابلتها، حتى لو كانت نبرات صوتها تفضح لوعة قلبها؟

أغلق هاتفه المحمول، لا يشغله إلا صباحا، ويقرأ عدد الرسائل، التي تحدد عدد الاتصالات وتوقيتها. تتصل به حتى في الوقت، الذي تعرف فيه أنه يكون نائما. أي حظ عاثر هذا يورطه دوما مع نساء ليليّات؟ اعتصر قلبه ألما، فكّر في كتابة رسالة قصيرة من كلمة واحدة : "انسيني"، ثم بدا له أن ردّ فعله هذا قد يجعله يضعف، ويستسلم مرة أخرى، وهو لم يعد قادرا على تحمل آلام الحب والغيرة.

ما شده إلى فتاته الجداويّة أنها لم تكن كغيرها من النساء المطلقات، اللواتي لا يفكرن إلا في الجنس، حتى لو كان افتراضيّا، وأدهشته مفارقة أن يعتبر الشاب السعودي نفسه " دون جوان" عصره، المستعد للسفر إلى أي بلد عربي أو غربي من أجل امرأة، وكل من تعرف إليهن شابات سعوديات مطلقات، تتراوح أعمارهن بين الخامسة والعشرين والثلاثين، ويجنحن إلى التعرف إلى شباب عرب... غرباء.

حتما، هناك خلل ما.

***

لسعت قلبه نار الغيرة، فكتب في صفحتها بموقع التعارف الاجتماعي تعليقا معاتبا ذلك الشاب المصري، الذي كتب لمواطنته طالبا منها فتح المسنجر. وفي رسالة خاصة سألها : أية صداقة هاته؟ أيعقل أن شابا في مقتبل العمر يسأل سيدة محترمة أن تدخل المسنجر على الساعة الثالثة صباحا. تجاهلت الرد عليه، وانتبه إلى أن المصري حذف تعاليقه، فكتب لها رسالة خاصة أخرى : حرقته وصمتك دليل على أنك تفتحين له الكاميرا.

حينما اتصل بها هاتفيّا أخبرته أنه صديق قديم، وسبق أن قابلته في مصر مع صديقاتها. يا سيدتي، مصر تمر بمرحلة انتقالية، وهذا كتب لك أكثر من مرة، وأمام الملأ يسألك عن عدم وجودك على الـ "مسنجر"..

في صفحة شاعرة مغربية مغمورة لفت انتباهه تعاليق الكثير من المعجبين بها (كامرأة وليس كشاعرة طبعا) تحت صورها الشخصية، بينما تجاهلوا التعليق على صور أخرى، فكتب بنزقه المعهود : يا عرب، يا أولاد القحاب. المغرب ليس بلد العاهرات.. لا أحد علق على صورتها مع ابنها، لأنكم تنظرون إليها كامرأة وليس كأم...

كتب معذبا بنخوته كمغربي، وهذا الاندفاع الأهوج كان سبب طرده من أكثر من منتدى بسبب عدم تقبله مغازلة أي كاتب عربي بنات بلده، وهذه الشاعرة ليست بفتنة عاهرته الفيسبوكية، التي اندهش للأشواق المسفوحة تحت قدميها، ومن كل الجنسيات.. وفي آخر مكالمة هاتفية طلبت منه ألا يضايق أصدقاءها إن كان يريد أن يبقى صديقا.

حين علم أنها مطلقة نصحها بأن تتزوج بدل هذه الفضائح، بينما أختها، التي اندهشت لغيرته عاتبته بأن لا يفكر في ما لا يملكه، مؤكدة أن (...) ليست صغيرة السن، وتعرف ماذا تفعل، وهي تتسلى فقط.

كان معذبا بتلك النظرة الدونية للمرأة المغربية، ولا ينكر أن أول ما شده إليها صورة لها في ملف تعريفها بالـ "هوتميل"، وثوبها يبرز كتفيها وذراعيها، وفحيح الشهوة يقفز من ثلثي ثدييها العاريين.

بدت له امرأة أخرى وصوتها يأتيه عبر الهاتف مزمجرا: أنا في سن أمك، أتعجب لحب كهذا، ماذا تريدين مني؟ أنا حرة، أمنح جسدي لكل الرجال.. لا شأن لأحد بي. طليقي لم يكن يتحكم في، مثلما تفعل.. فمن تكون أنت؟

***

لعن في سره العانس البدوية، وهي تعرض عليه أن تتزوجه. هل

أتزوج امرأة أكبر مني سنّا، وهبتني جسدها في دقائق، وفي مكان قذر... بائسة. لكنني عاطل عن العمل، ثم إنه في هذا المكان يعرفني كثيرون، وأخشى أن يرانا أحد. لا تقلق، أنا أعمل، وأنت اجلس في البيت ملكا.. أنا لا يهمني المال.

تفادى التعبير عن مشاعر كراهية مجانية اندلعت بين جوانحه، وبعد صمت : بصراحة، لا أفكر في الزواج الآن. حين تأتين لزيارة أقاربك هنا، سأكون في لقائك...

***

طلب منه رئيس التحرير تحضير مقال على وجه السرعة، والجريدة ماثلة للطباعة، في حدود ثلاثمائة كلمة عن الفنان المسرحي، الذي فارق الحياة، قبل لحظات، وأذاعت خبر نعيه بعض الفضائيات. تفاجأ بالخبر. فكّر : هل يمكن أن يكتب أنه عند احتضار الفنان الراحل كان ينصب كمينا لفريسته البدوية.

لم يرفض الدعوة، فمادته - وهو الكاتب المتعاون مع الصحيفة- ستنشر في صدر الصفحة الأولى، وسيستثمر غياب المحرر المسؤول عن الصفحة الثقافية والفنية لتغطية فعاليات مهرجان سينمائي بأحد البلدن العربية.

***

كانت أول وآخر مرة تحدثك عبر "سكايب". رنّ هاتفها الجوال، وسَمعتها تتحدث إلى صديقتها : لم يلمسني أي رجل منذ ثلاث سنوات، فكيف أفعلها، كما يتهمني هذا المجنون؟ وضحكت في خبث أنثوي، وهي تمني النفس برجل يعتليها في الصباح وفي المساء...

نفس الضحكات الفاجرة اندلعت عندما أرسلت إليها صورة ذلك الشاب السعودي، ونصفه السفلي عار. سألتك : كيف فعلتها، وصوّرته بهذا الشكل؟ لم تخبرها أنه يوجد برنامج لتسجيل الضحية بالفيديو. هذا مغفل.. لا أحد يفتح الكاميرا على وجهه، وقد ضيّعت الصورة التي التقطتها له، وهو

ينتظر بشوق فوق فراشه أن تشرق شمسك. مغفل محترم.

أشارت إلى أنها لم تعرف أين اختفت الصورة، وهي تستغرب لإلحاحك على حذف الصورة، وبعد أن شرحت لها كيفية العثور عليها بسهولة بين محتويات جهازها.. قلت : من أجل بناتك فقط.

***

تنفّس الصعداء، وهو يلج أحد مقاهي الإنترنت، فالوصول إلى البيت سيتطلب الكثير من الوقت. فتح علبة بريده الإلكترونية.. لماذا اختاره هو بالذات؟ ربما لأنه الأسرع في كتابة المراثي، وزميله يمازحه بأنه صديق عزرائيل، ويبلغه بأسماء من يقبض أرواحهم، قبل أن ينجز مهمته، وسيقطع صلته به، لأنه يتشاءم منه، ثم لمّح الصديق إلى أن مقالاته الرثائية تعويض عن فشله في كتابة الشعر، وأبدى استغرابه لعدم تحمسه للكتابة عن نتاج الكاتبات الواعدات، كما يفعل غيره، وابتسم في خبث...

لكن صديقه المقرب لا يعرف أنه يكتب مراثي لكل من يعرفهم؛ يضع في حاسوبه ملفّا لكل كاتب، حتى لمن لا يحبهم.. كلما صدر له كتابا أو فاز بجائزة أضاف المعلومة الجديدة إلى الملف.

فكّر في موته، وتساءل : ما جدوى الكتابة؟ من أنجز شيئا لافتا، ومن لم يأت بأي جديد يتساويان أمام سطوة الموت ! ترى، هل سيهتم أحد بموتي؟ ماذا سيكتبون عني، أو بالأحرى، كم عدد من سيفرحون لغيابي؟..

***

بالتأكيد، أنتَ لست شخصا سويّا، وتتذرع بجنون المبدعين، وترتكب الكثير من الحماقات، وها أنت تغضب كالأطفال، وتلوذ بالصمت.

كتبت للحيزبون المراهقة أنك ذاهب عند صديقك لرؤية أخته الجميلة، ولكي تقهر انجذابك لامرأة لا تعني لها أي شيء، اتصلت بأمل ظهرا، وجاءك صوتها ناعسا، سألتها : أمازلت تنامين نهارا، وتسهرين

ليلا؟ معقول؟ مازلتَ تتذكرني؟ أنا لم أنساك يا أمولة، والله، أنت دوما في قلبي... وتمازحها : هل تزوجت؟ لا، مازلت أنتظرك. كيف هي أحوالكَ؟ أنا لست بخير حبّي.. أنا محتاج إليك.

معتوه أنت بالتأكيد، تتصل بامرأة هجرتها عاما كاملا، وتصارحها أنك معذب بحب امرأة أخرى.

في مثل هذا الشهر هجرتها، وأيضا بعد عام تعلق قلبك بمواطنتك الأربعينية، المزهوة بصدرها، والتي تتبجّح بأنه دوّخ كل الرجال.

طلبت من أمل كلمة السر الخاصة ببريدها الإلكتروني، واستحوذت عليه، بعد أن قمت بتغييرها، وتمكنت بفضله من معرفة حساباتها المرتبطة به في السكايب، الفيسبوك، وبعض المنتديات... وبسهولة كنت تلجها، بعد طلب كلمة سر جديدة لتلك الحسابات. لامتك في ما بعد، ووصفت نفسها بالمغفلة لأنها صدقتك، راجية منك إرجاع الإميل إليها لأنه لا يخصها وحدها، وكنت تعرف أن أختها الأصغر سنّا، من تحرّضها، وتدفعها إلى التعرف على شباب آخرين، وأن تترك "البنغالي راجو"، كما تسمّيك، إمعانا في ازدرائك.. لأنك تشبه رجلا بنغاليا ساذجا وفضوليا في حيهم. تألمت عند اكتشاف رجال كثيرين، وعاتبتك : لمَ تعرف بناتا كثيرات، ولا تريدني أن أفعل مثلك؟.. يا غبية، أنا أحبك، والأخريات مجرد "شراميط"، فهل تحبين أن تكونين مثلهن في نظر من تعرفينهم؟

***

لم تندهش وذلك الفتى المراكشي يحدثك عن صديقته الشابة البحرينية، التي تفتح له الكاميرا، وهي مع زوجها في غرفة النوم. دهشتك الكبيرة كانت عند قراءة تبريرات نسوة متزوجات يمارسن الرذيلة الإلكترونية، لا يعتبرن ما يقمن به خيانة زوجية، مادام الرجال يرون أجسادهن العارية، ولا أحد يلمسهن، وأخريات لا يهمهن أن يرى

أي رجل كل شبر في الجسد، ويحرصن على ألا يرى وجوههن أحد.

***

ضحكت أخت صديقك، عندما قلت مازحا : اليمني أخو صديقتها، والسعودي زوج صديقتها. ووجدت نفسك تسايرها، تبتسم رغما عنك، لأنك تورطت في حب امرأة لا تستحق أن تلتفت إليها. ووجدت كل خبرتك العاهرة تتبخر أمام هذه العبقرية النسائية، التي تفوقت على خيال كل الروائيين. مرة أخرى، تكتشف أنك مغفل كبير في مملكة النساء، صدق أكذوبة المرأة الشريفة، وحتى الشرطي... عشيقها القديم، شتمك في صفحته بالموقع الاجتماعي، ناعتا إياها بأنها أشرف من أختك..

هل تعمدها وضعها "الكام" صوب الحائط، ستجعلك تصدق أنها امرأة شريفة؟ وضع الكاميرا يدل على أنها تستخدم جهاز حاسوب عادي، وليس محمولا، أي بالإمكان فصلها عن الجهاز. هل نسيت أن أغلب النساء يقمن بوضع لصاق داكن اللون على كاميرات الحواسيب المحمولة، حتى لا يراهن أحد؟

هل صدقت فعلا أنك نبي، انتصر بحبه، وانتشلها من مستنقع الرذيلة، فأعلنت توبتها الفيسبوكية، وحذفت صفحتها؟

كتبت لها ذات غيرة، وأنت غير قادر على تحمل غثيان كل معجبيها، وأغلبهم كهول (قد يكون بينهم من أصبح جدّا) : أنت مجرد قحبة وستبقين كذلك؟ لم تغضب، اكتفت برد مقتضب : هذا ليس شأنك.

***

في محادثتهما الوحيدة، وهي تسلمه كلمة السر الخاصة بصفحتها المعطلة، عقدت الدهشة لسانه، وهو يقرأ رسائلها الخاصة.. رسائل كثيرة ولرجال كثيرين. بعضها يعود إلى سنة ونصف، كلها أشواق وحب.. نفس الصيغة. هل يعقل أن تكتب امرأة لأكثر من خمسين رجلا أنها تحبه وحده... ؟ ابتسم وهو يقرأ رسالتها الركيكة، وهي تعلن لسوري كهل أنها ستنتحر، لأنه يتجاهل حبها له،

وكهل آخر عاتبها على غيابها عن المسنجر ويسألها هل حذفته، فردت عليه متسائلة كيف تحذفه، وهي تشتاق إليه، وتنتظره كل مساء، ولا يظهر..

تذكّر الحظر الذي أهدته إياه أكثر من مرة، كما يليق بامرأة لعوب، تجيد العبث بمشاعر الرجال. وتبخّر إطراؤها المبالغ فيه لذلك الشاب اليمني الوسيم، معتبرة إياه بأنه أفضل أصدقائها، لا وقت لديه لمثل هذه الأشياء، وحين يكون موجودا على المسنجر لا يكلّمها، لأنه مشغول بما يحدث في بلده الآن، وهو يقرأ ما كتبت له قبل أقل من أسبوع بأسلوبها الركيك، وبلهجة مصرية تعج بالأخطاء أنها تبوسه و "تريد أن تنام معه" وتتمنى الزواج به. ولم يستغرب أنها كتبت لكثيرين تنبههم إلى أن صفحة فلانة هي صفحتها الأخرى، (ولاحظ أنه لا يوجد فيها أقاربها، وكأنها تخفيها عنهم). كان يشك فيها، لأن تعاليق المرأتين، تتجاوران بأسلوب مكشوف في صفحة الشرطي/عشيقها القديم. ونقر على الصفحة الرئيسة للموقع، فقفزت إلى أعلى المتصفح مستجدات بعض الخليجيين، وعند الضغط على أسمائهم، اكتشف أنها هي من أرسلت تطلب إضافات. أمعقول امرأة رخيصة إلى هذه الدرجة.. هي من تضيفهم ولا يقبلونها؟ وفي رسالة ركيكة أخرى، كتبت لأحدهم أن لباسها عادي جدا، وخمّن أنه طلب منها - مثله- أن تحذف صورها المثيرة.

أرسل إليها رسالة خاصة، وقد أثار انتباهه وجود كهول عرب في صفحتها الجديدة/ القديمة، ليس بينهم أي مغربي سوى عشيقها القديم، ولا يوجد بينهم أي شاب.. خاطبها باسمها الحقيقي، مهنئا إياها على تمثيليتها وعشيقها. فردت مستنكرة : هل أنت مجنون؟ من (...) هذه؟.. يا سيدتي أنا لست مغفلا، إميلك هو من دلّني على صفحتك، من خلال محرك البحث بالموقع، أنا من قمت بوضع بلوك عليه قبل لحظات، أعرف بأنك موجودة على المسنجر، وعشيقك المغفل دخل قبل دقائق، وصلني إشعار بقبوله إضافتي.

***

أول مرة أرى شخصا يحب عبر "الشات".. على أرض الواقع، قد تتعرف على شخص وتحتاج لمدة حتى تتعلق به. لم ترغب في مجادلة أخت صديقك، كنت مصمّما على معرفة رقم هاتفها، فاعتذرت بأنها ستغيّره، ولن تعط رقمها الجديد لأي أحد، فصديقاتها يعطين رقمها لأصحابهن، ولكي تبرهن لك أنها لا تملك هاتفا، أخرجت جهازين من درج المكتب، وأخبرتك أن أخاها وعد بإصلاحهما.

المهم أن أعرف رقمك الحالي، وعند تغييره أخبريني بذلك. والمسنجر؟ أنا لا أفتحه ولا أحفظه، مرة واحدة دردشت مع مصري، ولم أكلمه بعدها، بعد أن سألني ماذا أرتدي تحت... ولم تكلمين المصريين والخليجيين؟ إنهم ينظرون إلى المغربيات كعاهرات سهلات الصيد. أنت صديق أخي، وبصراحة، لا أستطيع أن أضع أخي في وضع محرج، لا أحب أن يتكلم عنه أي أحد. أنا أريد أن أتزوج، لا أرغب في علاقات كهذه، ولو تعرفت على أي شخص يجب ألا يعرفه أحد هنا. الآن، فهمت.. قوليها منذ البداية.

أشاح عنها بوجهه، كطفل غاضب، غادر المكتب في انتظار صديقه، ورفع يده طالبا منها التوقف عن الكلام.. لا تكلميني بعد الآن. وواسى نفسه بأن وقوعه في غرام هذه الشيطانة اللعوب جعله يتصرف بغرابة، ومن قبل لم يكن يبالي بأية فتاة، كيفما كان جمالها، مادام قلبه موصودا : بسبب هذه العاهرة، أرتكب حماقات كثيرة. اللعنة على فصل الربيع، وعلى سعاد وأمل وكل النساء.. قريبات وبعيدات.

***

عنون الرسالة الالكترونية بـ "كمين للخروف السعودي يعترف فيه بأنه استمنى على صدرها"، ووجهها إلى عشيقها الوفي، بعد أن نسخ دردشتي الفيسبوك والمسنجر، والتقط له صورا مخلة بالآداب...

حين فطن إلى حيلته، لأنه غطى كاميرته الخاصة، ولم يتحدث معه، مكتفيا بالكتابة، لمعرفة نوع علاقتها بزوج صديقتها... هل هناك من

يكتب لصديقة زوجته بعد إرسال قبلة افتراضية أنه (...) مرتين البارحة، بسبب صدرها، ويكتب عن اشتهائه رؤيته للصدر عاريا...؟ قام بوضع الصور الفاضحة للرجل على صفحتها الشخصية، فهدده بأنها ستتصل بالشرطة، لانتحاله شخصيتها، واستخدامه صورها، وطلب منه حذف الصور لأنه سيتزوجها.

***

كان يستمع إلى أخت صديقه، وهي تنصح صديقتها الزّمّورية بأن تنسى حبيبها، الذي يصغرها بعامين، فالصيف على الأبواب، وسيكون هناك الكثير من الرجال في هذه المدينة الشاطئية، وتضع يدها عند كتفها ناطقة بعبارة : المهم اللباس القصير. أية نصيحة هاته؟ هل تتعرّى من أجل شباب يحضرون إلى المدينة صيفا، ليتسلون فقط، فتتحوّل المدينة إلى ما يشبه الماخور؟ هل نسيت تلك الورقة التي عثرت عليها، وكانت تضم أسماء بنات كثيرات، وأمام اسم كل واحدة رقم هاتفها المحمول؟ استغربتَ - يومئذ - احتفاظه بالأرقام في ورقة.. لكن، من المحتمل أن يكون متزوجا، ويخشى أن ترى امرأته أرقامهن في مفكرة هاتفه؟

همس لنفسه : هكذا تفكر البنات إذًا، وتذكر مشهدا عاينه مرتين، ومن بنات في مثل سن أخت صديقه، وهو يقف أمام البيت غارقا في تأمل ما حوله، فتاتان، تتهامسان، وسائقة الدراجة النارية تبطئ السرعة، تلتفت إلى صديقتها، وعند اقترابهما من بنتين قامت الفتاة الخلفية بحركة بذيئة... بدس إصبعها في منطقة حساسة، ومن قبل، رأيت ثلاث تلميذات مراهقات، عائدات إلى بيوتهن، وقبل أن يغيّبهن المنعطف عن بصره، التفتت إحداهن لتتأكد أن لا أحد يراهن، وقامت الفتاتان معا بـ (....) عجيزة الفتاة الوسطى، فانتفضت كالملذوغة.

***

عند كشك صاحبة الجرائد، وككل يوم جمعة اعتدت رؤية المتسولات عند رصيف المسجد، وعبّرت عن استيائك الشديد لمزاحمة أمّ ذلك المعتوه، حارس السيارات للمتسولات يوم الجمعة، وهي تعتقد أن لا أحد سيعرفها حين تخفي وجهها بذلك اللثام، بينما جلبابها الذي لا تملك غيره يفضحها. وسبق أن رأيتهما في الحديقة العمومية، القريبة من الكشك، وكان المعتوه يخرج كل محتويات جيوبه.

لا إنه ليس ابنها، وإنما (...). أمه طلبت منها الابتعاد عنه، ووصل الأمر إلى القضاء.. لكن لم تنصفها العدالة. فالابن قال للقاضي أنه وجد عند هذه المرأة حنانا لم يجده عند أمه.. فأمرهم بمغادرة القاعة. ولأنك لم تعتد على التلفظ بكلام ناب مع بائعة الجرائد.. كتمت ضحكك، وأنت تفكر في ذلك الحنان المفقود بين شاب ثلاثيني، شبه مختل عقليّا، وامرأة أربعينية تحترف التسول كل جمعة.

تصفحت الجريدة، عقدت الدهشة لسانك، وأنت ترى على صدر الصفحة الأولى صورة الفنان الراحل، تحت عنوان بارز، ولم تجد أي تفسير لإرسالك مادة أخرى من ملف "مراثي الزمن القادم"، الذي تحتفظ به في جهازك، وفي علبتك الإلكترونية أيضا، حتى تستخدمها عند الضرورة، أثناء وجودك بعيدا عن جهازك... كان مقالك مرثية مؤجلة لشاعرة ثلاثينية، تدوّخ بجمالها الكتّاب، النقاد والقرّاء، الذين لا يجدون غضاضة في التغزل بها، وقد يكون بينهم كتاب يختبئون خلف أسماء مستعارة ليغازلونها.

مشدوهة رنت إليك بائعة الجرائد، وأنت تمزق الجريدة بحركة سينمائية، غير مصدق أنك ترثي امرأة مازالت على قيد الحياة، ولعنت العانس البدوية، وكل نساء الأرض...

المنحة

غرق قلبه في بحيرة من البهجة، انتشلته من يوميات الحزن القاتل، الذي يدفعه إلى الصمت والانطواء. تبدى هذا الصباح متصالحا مع كل ما في الوجود.. لاح له الجار الكهل، منشغلا بتدخين سيجارته، لم يبال بتجاهل الكهل لتحيته هذه المرة.. لم يغضب : " ربما لأنني تجاهلته من قبل، وأنا أمر من أمامه... ليس تعاليا، لكنني لا أحب أن أكلم أحدا حين أكون حزينا، ثم إنني لا أستسيغ جلوسه- وهو يدخن السجائر- أمام بيته طوال النهار، كمراهقين كرسوا أيامهم للتلصص".

في الطريق إلى محطة الحافلات فكّرَ في ضحايا بلد عربي اختار زعيمه أن يقصف شعبه بالمدافع والطائرات. هتف لنفسه : " لا يمكن أن تخرج أي درهم خارج البلد أم تراك نسيت حين فكرت في طبع كتابك الأول في القاهرة، وأبلغك موظف المصرف أنه يتحتم عليك اتباع عدة إجراءات بيروقراطية، سيطلبها منك المكتب الرئيس لوكالة تحويل الأموال الشهيرة بالعاصمة. مهلا.. إن هذا البلد ليس في حاجة إلى دراهمك... وقد تلام لأن مواطنيك في أمس الحاجة إليها، وماذا عن موقف الدين؟ هل يمكن أن تسعف منكوبين بأموال من يحاربون المسلمين بشتى الوسائل؟ رجاء، لا تشغل بالك بهذه الترهات، فمن يحس بمعاناتك اليومية، التي تجعلك ترى كل شيء رماديا وكئيبا؟ وما المانع، حتى لو كان المال حراما.. إنها 95000.00 دولار أمريكي".

اختار المعقد المحاذي للشباك، وانتبه مرارا إلى أن الصغار يتشاجرون مع بعضهم البعض للجلوس بالقرب من النافذة في الحافلات والقطارات. انتشله من شروده صوت فتاة الحافلة، وهي تعلن تذمرها، فانتبه إلى أن

ربع ركاب الحافلة من المتسولين والمتسولات، ولم يعرف سبب هجومهم على مدينته. تناهى إلى مسامعه حديث امرأتين :

- جارتي، أخذت منحتين.. هي وابنتها.
- لأن ابنتها تعمل في...
- ممكن، لكن زوجها طلقها، لأنه رفض أن تعمل فيه.
- هناك أشياء تروى، عما يحدث هناك... نسأل الله الستر.

فكّر في رواية يوسف القعيد : "يحدث في مصر الآن"، وفي الحيلة التي اخترعها الطبيب لتوزيع الهبة الأمريكية على فقراء القرية، وتحايل النساء وادعائهم الحمل بدس كرات من القماش تحت ثيابهن، وقال لنفسه مواسيا : "الكل يتحايل على الكل، طبعا، يحق لي أن أختلس من المبلغ، ولو ألف دولار. آه، يا مفلس ! أنت قنوع جدا. ربما، سيطلبون منك وثائق لكل شيء، فهؤلاء ليسوا مغفلين. إنهم أبناء البلد الأقوى والأدهى في العالم. جاء في الرسالة أن المنحة مخصصة لضحايا الحروب والفيضانات، أي المنكوبين، وفي بلدنا لا يوجد منكوبين، والحمد لله.. ثمة فقراء وأناس يبحثون عن بقايا الأكل في حاويات الأزبال، كما في تلك الصورة التي رأيتها في موقع التواصل الاجتماعي الشهير.. في صفحة تطالب بإلغاء مهرجان فني، لاسيما في ظل ما تشهده الأمة العربية، ولأنك لم تكن على علم بما يحدث، وجدت نفسك تبحث عن الخبر في أحد المواقع المغربية، وذهلت بالعدد الكبير للتعاليق. هناك فريق يؤيد الإلغاء بدعوى تبذير الأموال العامة في أشياء غير مجدية، ويدعون لتخصيص المبلغ المخصص للمهرجان في محاربة الفقر والبطالة، وفريق آخر يرى أن الفكرة محاولة فرض عقلية قروسطوية وغسيل مخ.

نعم، هناك فقر وبؤس، ومن يتحمسون للمهرجان ينعتون المعارضين لإقامته بالرجعيين والمعقدين، إنهم لا يبالون بما تكابده الأغلبية الساحقة. رجاء، دعنا من السياسة، أنت لا تهتم بها، فلم تحشر أنفك فيها الآن؟

لا تكن متطرفا إقصائيا، حاول أن تتقبل الرأي الآخر، ولا تنس تلك الحكمة المغربية الشعبية، التي تلخص هذه العلاقة الجدلية بين الجوع والغناء : "الكرش ملّي كاتشبع تقول للراس غني". إذا، الأمر واضح جدا. لو جرب أفراد الفريق الثاني لسعة الجوع و خواء الجيب، لما دافعوا باستماتة عن مهرجان يرى فيه البعض أنه تبذير لأموال الشعب من أجل وصلات غناء مطربات يتلوين على الخشبة شبه عاريات، لكن المضحك أن بعضهم حاول أن يدافع عن الثقافة، الحضارة... مساكين، لا يعرفون أن المثقف العربي يعيش في بحبوحة "بؤس"، وأن لا أحد يقرأ... فعن أي حضارة يدافعون، وعن أي فن يدافعون، والفنان (المبدع عموما) المغربي منسي، مهمل، محروم من أبسط الأشياء؟".

***

في الحديقة العمومية، من مقعده الإسمنتي، اختلس نظرة إلى المرأة الجالسة قبالته.. كانت عجوزا، وعرف من التي تجلس إلى جانبها أنهما تحترفان أقدم مهنة في التاريخ. لفت انتباهه بياض ساقي العجوز ولمعانهما. عوت في داخله ذئاب مسعورة، وعلت شفتيه ابتسامة ساخرة، وهو يتخيل غيرة من يقضين نصف أعمارهن أمام المرآة، عند رؤية ساقي امرأة لا وقت لديها لمتابعة برامج التلفزيون النسائية.

لم ينتبه للشاب المجاور له عند جلوسه، فحانت منه نظرة إلى الصحيفة، وتلصص على خبر بالصفحة الأولى، بعد أن شده العنوان : "**واصل محتجون غاضبون على عملية توزيع هبة العاهل السعودي التظاهر أمس (الجمعة) لليوم الثالث، أمام المقاطعة الثانية بمدينة أزمور. وأوضح مصدر حقوقي بالمدينة أن مطالب المحتجين تحولت من المطالبة بالاستفادة من المنحة التي بلغت 3 آلاف درهم والاحتجاج على عملية التوزيع التي يقول المحتجون إنها عرفت مجموعة من الخروقات، إلى المطالبة بتنمية المدينة التي اعتبروا أنها مهمشة رغم قربها من العاصمة الاقتصادية للمملكة**".

توقف عن القراءة، ولاح له شاب أوقف سيارته الفارهة بالقرب من فتاة، كانت بصحبة صديقتيها، وهن ينتظرن الحافلة، تحت ظل شجرة. بدا له أسلوبه بليدا، وبدويا.. فهو لم ير منذ سنوات مثل هذا المشهد، ربما لأنه لا يخرج مساء : "ما المانع من أن تصيد كل يوم واحدة من العاملات؟... أليست فكرة إنشاء معمل أكثر جدوى؟". استسلم لأفكاره، وتخيل نفسه مشرفا على مصنع، وعند قدومه يعلق أحدهم ساخرا من بخله، لأنه لا يملك سيارة : "هذه ليست أموالي، ثم إن الضرائب وحدها قد ترميني خلف القضبان. لا. لا.. لابد من البحث عن مشروع مختلف... لكن، لا يمكن، فهؤلاء لن يقبلوا أن تستبلدهم، وسيحتاجون إلى الوثائق.. يا إلهي، ما هذا الوجع؟".

"**وأشار المصدر ذاته إلى أن قوات الأمن منعت مساء أول أمس (الخميس) مسيرة احتجاجية كان المحتجون ينوون تنظيمها في اتجاه منتجع مازاغان للاحتجاج على عملية توزيع هبة العاهل السعودي، وأضاف أن المحتجين الغاضبين نظموا مسيرات احتجاجية جابت جل الشوارع الرئيسية للمدينة، واتجهت إلى بلديتها والمقاطعة الأولى قبل أن تتوجه إلى مقر شركة "لاراديج" المسؤولة عن توزيع الماء والكهرباء للاحتجاج على ما وصفوه بغلاء فواتير الماء والكهرباء بالمدينة.**

واعتبر المصدر ذاته أن مطالب المحتجين من سكان المدينة تحولت من الحصول على المنحة المالية إلى مطالب اجتماعية تتعلق بتوفير فرص الشغل لشباب المدينة الذين أكدوا أن كثيرا منهم يعاني البطالة رغم توفر كثير منهم على شهادات عليا. وواصل المحتجون الاعتصام صباح أمس (الجمعة) أمام مبنى المقاطعة الثانية لمطالبة المسؤولين بإيجاد حلول جذرية للمشاكل الاجتماعية التي يعانيها سكان المدينة".

هل يمكن أن تجمع المتسولين و تشغلهم...؟ ليس مستبعدا أن يتمردوا عليك، بعد أن تلوح عليهم آثار النعمة، ومن دون شك، سيكون هناك

بعض المختلسين. لا بد أن تشرف على كل شيء بنفسك، وتعرف أين يصرف كل درهم. لكن، من يثق في المتسولين؟

المرأة ذات اللسان السليط، والتي تجعل كل أحقاد البشرية تندلع في قلبك عند رؤيتها، والتي سبق أن لمحتها تتشاجر مع ذلك المقعد المسن في السوق، تطلب منه أن يبتعد عنها، ربما خشية أن يتعاطفوا مع إعاقته وشيخوخته البائسة، ويتجاهلونها، وهي الضخمة التي تتحرك بمشقة. قبيل توقف الحافلة، وقبل أن تنزل، حاولت استجداء الركاب، لكن لم يلتفت إليها أي أحد. لعلهم سبق أن لمحوها في مدينتك... اندهشت، فلم تكن تعرف أنها زمورية.

ها أنت تفكر في الجميع، ولا تفكر حتى في نفسك..

على عجل، رمى جارك الجريدة في إهمال على الكرسي الإسمنتي، حين لمح ذات الساقين اللامعين تغادر الحديقة، وواصلت القراءة : "**وأكد مصدر من السلطة المحلية أن باشا المدينة بدأ داخل المقاطعة الثانية عملية استلام نسخ البطاقات الوطنية لبعض المحتجين الذين يطالبون بالاستفادة من المنح والإعانات المالية التي تشرف على توزيعها السلطات المحلية. وأضاف المصدر ذاته أن عملية استلام نسخ البطاقات الوطنية تأتي من أجل امتصاص غضب المحتجين والتخفيف من حالة الاحتقان التي عرفتها المدينة أول أمس (الخميس) التي عرفت تنظيم مسيرات غاضبة بجل الشوارع الرئيسية.**

وأشار المصدر ذاته إلى أن المسؤولين عن المدينة قرروا تهدئة الأوضاع وعدم استخدام القوة في التعامل من المتظاهرين الغاضبين رغم اقتحامهم مبنى المقاطعة الثانية لأكثر من مرة، مضيفا أن المشكل اجتماعي وسيتم البحث عن حل له عبر تسجيل المواطنين الذين لم يكونوا مسجلين من قبل باللوائح التي تتوفر عليها السلطة المحلية والتي يتم الاعتماد عليها في توزيع أي منح مالية أو مساعدات اجتماعية في مختلف المناسبات.

وسبق لمصدر مسؤول من السلطة المحلية أن أكد لـ "الصباح" أن عملية الاستفادة من منحة العاهل السعودي تمت بطريقة عادية اعتمادا على لوائح المعوزين المسجلين لدى المقاطعة، وأكد أن القيمة المالية المرتفعة للمساعدة جعلت أشخاصا غير معنيين بالاستفادة يريدون الحصول عليها بأي شكل. واتهم المصدر ذاته عناصر لم يحدد هويتها بالتشويش على عمل أجهزة السلطة المحلية بالمدينة، لأنها لم يسمح لها بالاستفادة من الهبة".

***

هل تذكر حين أوهمت نفسك بالفوز، وأنت تشارك في مسابقة الهاتف الجوال، وكانت الجائزة سيارة؟ قلت : لا بأس من المشاركة، وفي حالة الفوز يمكنك بيعها، فأنت لا تحتاج إليها، وأنت عاطل عن العمل وعن الحياة. لو كنت تافها لفكرت في أن تستخدمها لنزواتك، كالآخرين. بذرت مالا كثير من أجل لا شيء، ثمن الرسالة القصيرة كان غاليا، وكانوا يجيدون نصب الكمائن، فتجد نفسك مضطرا إلى أن تشحن الرصيد أمام السؤال البسيط.. إذا، ما الفرق بينهم وبين أولئك الذين يمارسون النصب والاحتيال على المسنجر مدعين أنهم فتيات: (اشحن واعرض لك)؟...

بيد أن هذا ليس قمارا، لقد أبلغوني أنهم اختاروني وطلبوا مني إرسال البيانات، والبيانات المطلوبة عادية جدا. وقد أرسلتها إليهم، وأنا أقرأ رسالة إلكترونية يحذر فيها صاحبها ذوي المشاعر المرهفة من مشاهدة الفيديو المرفق، وتذكرت - حينئذ - المشهد الذي صوب فيه رجل أمن مصري مسدسه نحو صدر مواطنه، وبدم بارد أرداه قتيلا...!!.

***

مساء، أعدت قراءة الرسالة الإلكترونية، وانتبهت إلى أن صفرا سقط سهوا. المبلغ الصحيح : 950000.00 دولار أمريكي. وفطنت إلى أن الرسالة ليست موجهة إليك بشكل شخصي عند عودته، وأنت الخبير

بمثل هذا الأسلوب في المراسلات، الذي لم يخدع من قبل برسائل التسول/ النصب الإلكتروني، لكن بؤسك... هو السبب.

تبّا، لم جئتُ إلى هذه الدنيا، ولم يحدث كل هذا ومن أجل ماذا؟ لا شك أن الرسالة أرسلت إلى الآلاف، وبنفس الصيغة بشروهم باختيار الأمم المتحدة لهم، وطلبوا منهم أن يعجلوا بطلب المبلغ.

بانفعالك الطازج، تحوّل الرسالة إلى صديقك المقرب، مع كلمات بذيئة.. مشفقا على غبائك المؤقت، تفتح علبة بريد إلكترونية أخرى، وتجد نفس الرسالة، التي أهلمتها من قبل، ولأنك لم تكن تتابع الفضائيات، ولا تهتم بالسياسة ولا تتابع ثورات الربيع العربي، جازفت وشغلت الفيديو، على الرغم من تحذير صاحب المقطع، لكنك لم تتحمل بشاعة أن ترى شابا في عمر الورد محمولا على كتف أحدهم، يوضع على السرير الأبيض، ويحيط به بعض الأطباء، ومن بين الحاضرين من يصور بالهاتف الجوال ما يجري، ورأيت أحدهم يشد شيئا ملطخا بالدم بيده، لم تحتمل مواصلة مشاهدة رأس الشاب، وهي مفجرة. لم تجد سوى الدموع، وأنت تسارع بغلق كل المتصفحات.. لاعنا كل شيء...

أيام من سراب

غادرتَ البيت، تحت جنح الظلام.. في طابور توقيع الجوازات، جاءتك رسالة قصيرة من زوجتك تسألك إن كنت قد وصلت إلى المطار. طلبت منها أن تعتني بابنتك الرضيعة "ياسمين"، ذات الشهرين، وألا تعنفها إن أحدثت ضجيجًا ببكائها المعتاد ليلا.

- لماذا لم تودعها؟

كتبتَ، وبعيون دامعة :

- لم أحب أن أبكي، كما أبكي الآن!

طفر الدمع من عينيك، وخجلت منه، وبقربك امرأتان.

***

- أين لحيتك؟

سألك موظف التأشيرات، وهو يحدق في الصورة الغائمة. أجبته :

- المشكل في "سكانير"، أنا أيضًا فوجئت بها..

- يجب أن تكون بلحيتك...

- إنها مشذبة..

ورفعت صورة جواز سفرك مشيرا إلى أنها الصورة ذاتها...

تنفست الصعداء، بعد أن اجتزت هذه الورطة الصغيرة، إذ يمكن أن يربك هذا الموظف كل شيء، مثلما فعل مع صاحب التأشيرة السعودية، فراح ذلك المسكين يتصل بكفيلته المغربية هناك.. صاحبة محل لخياطة الأزياء المغربية التقليدية.

***

لم تنم سوى أربع ساعات، رغم الرحلة الجوية المتعبة.. لأنك نمت بلا

عشاء. وكان يتحتم عليك أن تستيقظ مبكرا، وبسبب جهلك الشنيع للغة شكسبير، وجدت صعوبة في التواصل مع الكوريات في المطعم، مثلما حدث مع مضيفات الطائرة الأسيويات، وكان أغلب المسافرين على متنها من الصين، بدا مظهرهم مضحكا، وهم يضعون كمامات.. قلت لنفسك: "يخافون على أنفسهم من العدوى، ويغزون بسلعهم البئيسة كل أسواق العالم ". لبرهة، خيل إليك أنك مسافر إلى بلد غير عربي، فأينما تولي وجهك ثمة هنود، باكستانيون وكوريون. لم يبدد وحشتك في مطار الدوحة سوى أن تحيي رجلا كهلا من صعيد مصر، عرفته من خلال جلبابه البسيط، وأيضا من ملامحه التي تشع طيبة... رغم أن "دراما الجلابيب" تصورهم قساة القلب والطبع !

***

بقيت أطول مدة في حوض الحمام لعلك تبدد إحساس الوحشة، ثم تركت أحد الهاتفين الجوالين بتوقيت المغرب، وجعلت الآخر حسب التوقيت الإماراتي، وصرت تحس بقلبك منشطرا، كلما نظرت إليهما.

خارج الفندق، كان الجو حارا، جحيميا، وفي الداخل، تلفحك نار أخرى؛ وأنت تفتقد الألفة.

***

في الطريق إلى منتجع "قصر السراب"، توقف السائق المصري سامح عند محطة البنزين، وذهب سمير لكي يدخن سيجارة. تسليت بتصفح هاتفك الجوال. نظرت إلى صور "ياسمين" على عجل.. ثمة صورة لها التقطتها، وعمرها لا يتجاوز نصف ساعة، وهي تواصل - في الصورة- نومها مستندة بيدها إلى خدها. تذكرت اختلاجة قلبك - اختلاجة لا تنسى ولا تتكرر- عندما أبلغتك الطبيبة أن زوجتك أنجبت بنتا، وطلبت منك أن تحضر لها أكلا، لباسا وغطاء، و أوصتك إحدى نساء العائلة أن تشتري حفاظات صغيرة وأخرى كبيرة.

انهمرت دموعك حارة كهذه الصحراء.

سألك سمير وسامح معًا: ما بك؟ خانتك الكلمات. لم تستطع أن تنبس بكلمة، فوضعت هاتفك الجوال في يد سمير.

سألك سامح : أهي البكر؟

أشرت برأسك بالإيجاب، وعقب سمير :

- البكر دائما تكون عزيزة...

***

تنهب السيارة الطريق، ومن أمامها ومن خلفها تترامى الصحراء متماوجة، لمحت جملا وحيدا، تذكرت أنك رأيت قطيعا من الإبل قبله، فسألت سامح عن صاحبه، فقال إنه بلا صاحب. ابتعدتم عن أبو ظبي بحوالي خمسين كلم، فكيف يعقل أن يكون له صاحب، ولا أثر لحياة بشرية هنا؟ لو وجد في مصر، هل سيتركونه؟ ومازحته قائلا : لم لا تأخذه معك؟ فرد بأنه لا أحد يستطيع الاقتراب من هذه الجمال، لأنها تعض، لهذا يضعون سياجا حديديا على ضفتي الطريق حتى لا تهاجم أحدا..

من هاتفك الجوال، انساب لحن المقدمة الموسيقية لفيلم "الزمار" شجيا، سألت السائق : ألا تشتاق إلى مصر؟

***

بنبرة تلقائية، تهمس في أذن جارك: "دخان السجائر سيؤذيه"، مشيرا ببصرك ناحية رضيع، كان يلعب بأطرافه، وهو مستلق على ظهره. كانت الأم وبقية أفراد الأسرة - المجاورة طاولتهم لطاولتكم- غير عابئين به، بينما يعلو تصايحهم أثناء تناولهم الطعام، ويأتيك صوت أحدهم، وهو يعنف أحد الصغيرين، اللذين لم يتجاوزا ربيعهما الثالث...

أحسست بالضآلة، وقد بدا لمواطنك، وكأن الأمر لا يعني له أي شيء، وعاد للحديث مع جاره. تناسيت نفسك ووجودك، حيث وليمة العشاء في الهواء الطلق، صحراوية. أحسست بأنك تنغمس في قوقعة وحدتك

أكثر، وانتظرت على أحر من الجمر انتهاء العشاء، والعودة إلى الغرفة بالفندق.

رغم عدم حماسك للدردشة من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، وجدت نفسك مدفوعا إلى فتح بابها - الذي تغلقه دوما- في هذه الأمسية، غبّ نفاد رصيد هاتفك الجوال، لعلك تجد صديقك المقرب، وفي قلبك شلال دموع...

لم تستمتع بسحر المكان منذ وصولك إليه؛ ففي أعماقك حضارة حزن تفسد طعم كل الأشياء، وحتى رسائل زوجتك التي تبدد وحشة هذا الحضور انقطعت.

تفتح خريطة رقمية، وتخترق المسافة التي تقطعها الطائرة في ثمان ساعات مرهقة، بنفس سرعة وصول رسائل الهاتف القصيرة.. توقفت عند مدينتك، تمهلت لحظة - قبل أن تقوم بعملية تكبير للخارطة-، وفي أذنيك ترن مناغاة ابنتك وضحكتها البريئة كلحن مرجع، وهي تحاول أن تقلد إحدى كلماتك، فكرت في أن تختلس نظرة إلى شارعكم في هذه الأمسية المخضبة بحناء الوحدة. قبل أن تضغط على أيقونة معلمة تاريخية، قريبة من بيتكم، انهمر دمعك في حرقة، تركت الحاسوب، وركضت في اللااتجاه...

***

حين ينشر الليل عباءته الكالحة، يختفي السحر الملكي للمنتجع الصحراوي، وترنو إلى الظلام الدامس، وتتذكر قرية طفولتك، وليلها المرصع بالنجوم قبل أن تسرق الكهرباء حميميتها.

لملمت أشياءك ليلا، وأطفأت الأنوار، وتركت حقيبتيك تنتظران ساعة الرحيل. حين أبلغت بضرورة مغادرة الغرفة قبل منتصف النهار، غيرت ثيابك على عجل، أحسست بأنك غير قادر على مفارقة المكان. ثمة ألفة ما تنشب أظافرها في أعماقك، وستضاعف - لاحقا- إحساسك باليتم في

الطريق إلى أبو ظبي.

قبل أن تغادر الغرفة، ألقيت نظرة أخيرة، أقفلت الباب، ثم أعدت فتحه مرة أخرى، وكانت الستارة - هذه المرة- تحجب عن بصرك المدى الذهبي الفسيح، وشيعت الغرفة بنظرة كسيرة.